من هنا وهناك

أنستاس مارى الكرملى

[الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء]
للحسن البصرى

هذا راحل ثالث اثنيه فى هذا المكان ولم تمض سنة . هل أدع الفطنة فى انتقاد والعلم فى مكنة والسعى فى جد يذهبن ولا أنحسر ولا أتاوى ؟

شيخ أسبل اللحية على هواها ، فانتثرت وكشفت وطوقت أسفل الوجه بهيبة ذكرتنى أول ما أخذت عينى بالجلال الذى يحف أولئك الآباء الموصوفين فى التوراة المصورين فى الكتب المسيحية الشرقية . وكان يزيد فى تلك الهيبة ثوب الرهبان الكرمليين على سذاجته وفضفضته . وكان الأب الكرملى — رحمه الله — مع جلاله وادع النفس ، حلو المعشر ، لطيف الاشارة ، كثير التندر ، إلا إذا وثب إليه غامز أو غاظه منازع ، فتراه كأنه الفارس الذى ما ترك لونا من ألوان السلاح إلا شده إلى جنبه ، فهو الضارب الرامى والطاعن القاذف . ولا تهدأ له يد حتى يسقط خصمه وحجته مفلولة .

ولعل هذا البأس انحدر إلى طبعه ، فغلب على حاله ، من جبلة أجداده وهم أهل جبل ، أشداء . فقد ولد الكرملى سنة ١٨٨٦ فى بكفيا من قرى لبنان ، فى بيت لامع . ثم هبط به أبوه إلى العراق ، فأقام هناك وترهب ، وتلقى علوم الدين فى بلجيكة خاصة .

انقطع الكرملى للغته الكريمة ، فأكب على درسها حتى حذقها أى حذق . وقد صارت بصارته بمتن اللغة إلى حد ما أعرف أحدا من المعاصرين بلغ إليه . وقد اتفق لى الحين بعد الحين أن أتاقفه فى هذا الباب فدانى على أسر ر ونهنى إلى دقائق . وكان أسلوبه محكما متينا سليما ، إلا أن رهافة الأديب المنشئ كانت تزايل قلمه أحياناً . وأما علمه فكان غاية فى الرسوخ ، ألا ترى إلى تحريره النصوص المطوية مثل الجزء الثامن من « الاكليل » للهمدانى (بغداد سنة ١٩٣١) ومثل الكتب الأربعة التى جمعها فى « النقود العربية وعلم النميات » (القاهرة ١٩٣٩) ومثل « نخب الذخائر فى أحوال الجواهر » لابن الاكفانى (القاهرة ١٩٣٩) . وكان إلى جنب التنقير والتحقيق فقيهاً فى أوضاع اللغة وصيغها وتراكيبها . وحسبه دليلا على ذلك كتابه الفريد النافع « أغلاط اللغويين الأقدمين » (بغداد ١٩٣٣)، فلا يقدم على معالجة مثله سوى إمام .

ومما أخرج الكرملى فوق هذا عدد وافر من المباحث والمقالات فى موضوعات شتى يتقدمها الحيوان والنبات ، نشرت فى مجلته « لغة العرب » و « المشرق » و « المقتطف » و « مجلة المجمع العلمى العربى » بدمشق ، و « مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية » وذلك إلى جنب الصحف السيارة مثل « الأهرام » . وتمتاز هذه المباحث والمقالات بالطرافة والمتانة مع سعة الاطلاع وإن اتفق أن يجرى فيها الاشتقاق مجرى قد يكون مستغربا .

وكل ما أذاعه الكرملى للناس إنما يمضى

إلى تكريم اللغة العربية وتعزيزها وتكثيرها وتدبيرها أحسن تدبير. ذلك فضل عظيم، وقد عرفه ذووه يوم أوفدت بغداد الكريمة هذا الزاهد، بلحيته وثوبه ونعله إلى مصر ليجلس عن علماء العراق كافة في مجمع اللغة العربية. ولن أنسى استنكار بعضهم لقدوم الرجل، وفي أنفس بعضهم ظلمة ظالمة.

في ذمة أبيك الذي في السماء ايها الشيخ الصالح! سعيت فنفعت وزهدت فظفرت. لعل ما خلفت من نفائس مطوية أو منتثرة ينشرها ناشر ممن يعرف فضلك ويحب لغتك، أو يجمعها جامع من تلامذتك وفيهم نفر من أعلام بغداد: فقد كنت حدثتني فيما حدثتني عن معجمك الوافي واسمه «المساعد». وأما مخطوطاتك ومطبوعاتك ففي العراق أو في مصر من يقدرها فيحفظها إن شاء الله... فالى رحمة ربك يا من جمل لي من نفسه موضعاً وآثرني بعطفه وإن قطع ما بيني وبينه آخر أيامه، فحزنني مرضه... يسر العلي لك طريق أنسه!

بشر فارس

خطاب إلى الطفل الناشئ في القرية

إني جاوزت جانب البحر ذات نهار، وحال بيني وبينك الموج... وجاوزت وسط الحياة ذات نهار، وحال بيني وبينك النهار والليل، ولكن سبل الذكر لم تنقطع بيني وبينك... في ما تسمع الأرض من نبأ أثر من الحديث وظلال من المودة تجمع الشتيتين. والفكر الدائم الدائب يسري بك إلى الأرض التي تحملني، وأرتد إليك بقلبي من أمل ومن إشفاق، واعتز بما حملتني من رجاء يوم ينزل بي الكلال، وتأفل في ليل الاعياء نجوم سبيلي... والتي لم تملك حيلة من المقادير والبعد ولم يوصد قلبها عن الدعاء والذكر، عرفت أن خير ما ينفع المحب رجاء، فأجابت حديث ذكرى بدعاء:

«ألا فلينعم عليك الله بضياء ينير سبيلك
وبأمل يدفعك إذا هيض عزمك
وبكل سعادة نزلت بقلب...

عرفت عند مرافئ الحياة أن تراء النفس إن آمنت به النفس ذكر جميل، وأمل يرسله إليك في مجاهل الحياة قلب سليم، وحكمة تهتدي ببصيرتها عند الذي تلقى من الأحداث... ولا يدرك الذكر والأمل والحكمة بصر وهي التي يسرت كل امرئ إلى قدره.

ولم أبصر فيما تحدثني من هذه الديار أثراً سعد به الانسان حيناً من الدهر، حتى حدثتني النفس أن آتيك به أو بأحسن منه. ولم أمعن فيما علمت الحكمة من آثار سعد بها الاحياء زماناً حتى أعددتها ذخراً أقدمه إليك... وكأن كل ما أسمع أحمله إليك... وما كان ذلك أدباً ولا كذباً من القول، وإنما هي فطرة ركبت في خلق الاحياء... وأنا أكاد أومن أن في الانسانية أواصر وقرابة وأرحاماً لا تنقطع، حتى يجمد الانسان ما خلق الله، أو يرضى الانسان لنفسه الشقاء... وللأرض التي نمت منها كل حي رحم وقرابة.

وما ينكر منكر نعمة هذه الشجرة التي ترى والتي تهتز أغصانها من النسيم، ويغرد في أحضانها الطير... وتسكن من حولها الأغنام والأنعام. عند هذه الشجرة يهبط فكري، فأرى شيوخكم يتحدثون بما حفظوا من أسرار الحياة... وهل أباحت الحياة سرها لأحد!

ومنذ غدوت من أهلي أسأل عن ضميرها كل كتاب فلم يفن الكتاب شيئا . وركبت لمعرفتها كل صعب فلم أجد على الأرض غنى ... وحسبت حين حملني المقدور إلى ما أجهل أن أسارع إليك بما أجد من سعادة وهدى .

لا سبيل إلى أن أحدثك عن ضمير الحياة ، فان حدثتك به أحد فقد عرف شيئا وغابت عنه أشياء وسيفضي إليك ببعض العلم هذا الكتاب الذي تنشر صحفه على الأحياء كل نهار ، والذي يتلقاه الأحياء سجودا في مشرق الشمس وسجودا في غروبها . وسيفضي إليك ببعض العلم نجوم الليل ونور النهار ، وتفضي إليك الأرض ببعض العلم حين تأخذ زينتها وحين تتجرد . ويفضي إليك ببعض العلم يقظة الصبح ونوم المساء . . . ومنذ دبت على الأرض دابة نشر ذلك الكتاب على الناس ولم يقرأ الناس إلا ظاهرا لم تتجاوزه عقولهم ، وآمنوا أن من وراء ذلك يداً استمسكت بهذا الضمير لا تسلمه لأحد . . .

وما يملك أحد أن يتمنى لك أمنية أسعد من أن تقرأ الطبيعة عليك كتابها كل يوم ، فتعقل آثارها إبهاما ووضوحا وأنت سليم ... وإذن لقرأت جمالا ودينا وحكمة ، وآمنت إذا اكتسبت فضيلة العمل والوفاء بما آمن به الصالحون الذين لم يقرءوا حياتهم سوى حديث الزهر والماء والأنغام ولم تجعل السماء آمالهم سوى الخير . فكانوا في حياتهم رجالا عادلين يتقون الله ، فأنبتت لهم الأرض نباتا طيبا ، وحمل لهم الشجر ثمرا شهيا ، ورمى لهم البحر بخيره ، وأحاطت بهم ذرية سعيدة طيعة .

فهل من سبيل إلى أن تصم طفولتك من آفات الحياة . . . إنه لا يحل لأمة أنبتتك وأن تنسال صبيا وأنت أعز ما تملك الأمم . . . ومن يعجل به الفقر منكم فينفى من الأرض التي حملته ليخدم كالعبد في منازل الأغنياء ، ولا يغرس الأرض ولا يقرأ كتابها . . . ومن يعجل به الحرمان صبيا إلى آفات المصانع فيفسد ترابها رئتيه . . . ومن لا يعصمه منكم عاصم فيهيم طفلا في كل سبيل . . . ومن تدركه هائما جائعا آفات الفساد كان إثما ارتكبته الجماعة . ربما تهذبك الجماعة إن اضطربت موازينك بالسجون . . . وحينئذ يحق لك أن تذكر ضمير الجماعة بقول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

فانك ثروة إن تولت قدرها أمة رشيدة جعلت منك طبيبا وخطيبا ومعلما وجنديا ورجلا سعيداً ، وباهت بعقلك وجمالك الأمم . وكم من أمة تتمنى لو كنت من أبنائها ، وإذن لآتتك خيراً وفضلا كبيراً . فلأقرانك في بلاد أخرى حدائق أطفال . وسنت لأقرانك قوانين تحميهم من الجهل والفساد والفاقة . ولأقرانك تنافس المتنافسون من الفلاسفة والحاكمين ، وانصرفت إليهم أمم بكل آمالها . ولأقرانك في الاساطير قديما نزل أبولون إلى الأرض ومكث راعيا بين الرعاة ، وكانوا قبلئذ جاهلين فطربوا بنايه وعلمهم جمال الزهر ودورة الفصول وما حولهم من آيات الطبيعة ، فأخذ الرعاة بفنه ، فانقلب كل كوخ موئلا للسعادة والفن والفرح ، واستأثرت بعدها هذه الأكواخ بما عز على قصور الأغنياء .

إنني أخاف عليك من حياة هذه المدنية التي لم يسعد بها قومها ، والتي زودت الانسان بقوى فني بها الانسان ، وأمست المحبة كلمة يتحدث بها كتاب ، وأغنت الصناعة الانسان عن الانسان ، وقطعت الأرحام ، وحجزت الانسان في حجازها ، وجعلت القرابة بين الناس قرابة رياضية بحساب ، وأمست هذه المخترعات أمة في كل بيت ، وأمة في كل طريق ، وأمة في كل عقل . . . وأمة تسعى

فى الأرض وتجرى فى السماء . وتعتدى هذه الأمة على الابرياء ، وتكذب كما تكذب الاماء ، وتخدع كما تخدع الاماء ، وتنتقم انتقام الاماء ، وأملت على الانسانية سياسة الاماء .

وقد حسب الانسان يوما أنه سيد هذه الأمة يسخرها كما يشاء ، وتطيعه إن هدم بها ملكا أو غزا بها أرضا ، وتمتع بها دهراً متاع الغرور . ثم تنكرت هذه الأمة لسيدها ذات نهار فأكلته ، ولم تفرق بين صديق وعدو ، وحجرت الانسان هلماً فى بطون الأرض .

وهذه الأمة تتزين للانسان بزينة ظاهرة من أدب ظاهر ، وحديث مصطنع ظاهر ، واختارت ثراء المال وأمسى ما آمن به الأولون حديث خرافة . ستسمع يوم تعقل قبل أن تبرح الأرض شيوخا يذكرون المروءة والدين والعدل والاحسان . ولا تعرف مدنية الصناعة من هذه الفضائل إلا ما تحدث به الكتب ، ولا يتحدث بهذه الفضائل ساسة هذه المدينة إلا حين يريدون أن يحلوا حراما أو يحرموا حلالا .

وسيكفر الانسان بما آمن به حينا ، ويفر بنفسه إلى الدين والفضائل الأولى ، وإلى الحرث والنسل ويختار سعادة الخير . وقد عرف الأولون سبيل هذا الخير فى تعليمهم . . . إنما هى حديقة يزرعها الحكيم وتلاميذه فى حر الشمس وبين يدى الماء والزهر ، وتنمو أجسامهم بالرياضة ، وعقولهم بالحكمة ، وتتغذى نفوسهم بالقول الحكيم الرصين من الشعر ، وتسمو الموسيقى بعزمهم وآمالهم . ويتعلمون أن غاية السعادة الفضيلة ، وأن الفضيلة سعادة فى نفسها ، وأن كل شرف فهو خير ، وكل عار فهو شر ، وما بينهما احداث لا يقيم لها الانسان وزنا .

إنى أخاف عليك ، بعد الآفات والجهل ، أن يعلمك الذين دانوا بدين الأمة والذين يعلمون البطالة والفراغ ، وهما مرتع خصب لسائر العلل . . . إنهم لا يرون ولا يستطيعون أن يتبينوا آثار أعمالهم . . . فهم لو يعلمون سبيلا إلى سعادة الأرواح والأبدان . . . وما فعلوا إلا أن عطلوا هذه المواهب الفطرية ، ليجعلوا من الاحياء مرتزقة لا تنزع آمالهم لشىء لا يعد من دور الحكومة ليعيشوا بين جدرها عيش البطالة والفراغ . وإذا خرجوا من فراغ أعمالهم لاذوا بفراغ القهوة وكأن من فتح مدرسة فقد فتح قهوة . وخسرت الأمة بذلك من أعدتهم لسعادتها ، وخسر هؤلاء سعادتهم . . .

إننى أتمنى لك زمانا تبرأ فيه الأرض ومن عليها من الفساد والبغى والجهل ، وأن يعلم الناس أنك سيد الأرض التى أنبتتك وتتولى إليك عقول هذه الأرض جميعاً وآمال هذه الأرض جميعا .

على حافظ